والعروض... الخ» (ص ١٢٢ ـ ١٢٣). وهذا الحكم يؤسسه النص على تقلبات إميل حبيبي السياسية التي تمس موضوعية المعرفة وأخلاقية الكتابة. لكنّ هل التاريخية التي تستند إليها منهجيّةُ **بؤس الثقافة** تسمح بتفسير تقلّبات «حبيبي» بوصفها تعبيراً عن خصائص ذاتية تفرد كينونته في صيغة «الوجه المفقود في الأقنعة المتعددة»؟ أليس من الأصوب منهجياً، وبالاتّساق مع منهجية **بؤس الثقافة**، أن يُقرأ الانهيارُ المأسوفُ لحبيبي في الانهيار الشامل الذي لحق بالنموذج الذي كان يتعبّده حبيبي طوال حياته لا بمفرده، وإنما تعبّدته قوى وأحزابٌ وفصائل على المستوى العالمي والعربي؟ أليس هو ضحية من ضحايا حرب كونية غير معلنة، خرج كلُّ واحدٍ منّا يحمل تشوُّهاتِها؟

إنّ نكوص حبيبي لا يمكن إرجاعه إلى أنّ هذا الأخير كان مثقّفاً مفتوناً بالسلطوي وبالحقيقة أو إلى أنه كان مثقفَ جهازٍ يميّز بين النافع والصحيح، ويختار حقيقة السلطة النافعة. ذلك لأنّ مثقف الجهاز هو مثقف الثبات تعريفاً، حسب منطوق خطاب **بؤس الثقافة**، في حين أنّ حبيبي قام بانقلاب مريض على ماضيه، وهو بهذا الانقلاب لم يحقق نفعاً ولا ارتزاقاً، بل نال استنكار وتعنيفاً وتشهيراً على طول الساحة العربية. وكان من الأنسب لحبيبي ـ من وجهة نظر المنفعة ـ أن لا يصطدم بسلطة الرأي العام، ولا بسلطة المقدس الايديولوجي لأحزابٍ كان واحداً من أعضاء مكاتبها السياسية، قبل أن تتحوّل هذه المكاتب من إدارة المقدس الايديولوجي إلى إدارة الأعمال الناجحة التي تبدأ من تجارة الشنطة وتنتهي بتجارة الجملة وبدور نشرٍ ومراكزِ بحوثٍ وإصدار دورياتٍ، تؤمّن لها بنى هيكلية تحافظ من خلالها على تمفصل بائس في بنية نظام عربي بائس، عبر حصة بائسة.

إنّ منطوق الخطاب، وتماسكه النظري، وصلابته النقدية الشجاعة، في **بؤس الثقافة** كانت تستدعي أن تقرأ فضيحةَ «حبيبي» في فضائحيّة الواقع العربي، الذي يفتقد إلى الأسس العقلانية (يميناً ويساراً) القادرة على تحقيق التوازن والانسجام بين الوسائل والأهداف. كانت تستدعي نقدَ تجربة حبيبي من موقع البديل الذي يدعو إليه الكتابُ، لا من موقع الدفاع عن نموذج مفوَّت، لم يعد صالحاً للتقدم البشري ولا للتقدم العربي. كان المفترض أن يتم النقد من موقع اليسار البديل الذي يشكل كتابُ **بؤس الثقافة** مساهمةً خلاقة على طريق صياغة أفقه المستقبلي، لا بإدانة حبيبي لأنه دان الانقلاب العسكريَّ على غورباتشوف، إذ إنّ الزمن تجاوز الانقلاب وغورباتشوف معاً.

إنّ انهيار حبيبي ليس مدعاةً لتأمل تحولاته وانقلاباته الفردية وفقدانه لوجهه في الأقنعة المتعددة، بل هو مدعاةٌ لتأمّل صورتنا في مرآة مأساتنا الوطنية والقومية والتحررية. وإميل ليس إلا مفردة في نصٍّ واقعٍ لا يشرّف أحداً، واقعٍ يفرض من جديدٍ استشرافَ أفق حركة فكرية يسارية جديدة، بدأها فيصل دراج في كتابه **بؤس الثقافة** بجدارة المثقف القادر على الارتقاء لممارسة أخلاقية المعرفة بحق.

*

إنّ كتاب **بؤس الثقافة** مسكون بهاجس معرفي أخلاقيّ أصيل ملازمٍ لكتابة فيصل دراج، التي كانت ومازالت تستثير في حياتنا الثقافية ما ينبغي للثقافة الرفيعة أن تثيره في الثقافة والسياسة والمجتمع، ولاسيما عندما تركن إلى وعي نظري للثقافة لا يقر بمعناها وأهميتها إلا عندما تكون حاملاً لمشروع سياسي بديل. إن كتابة تحدد وظيفتها وفق هذه المعايير، لا بد أن تجد نفسها منتظمة وفق حركة صيرورة نوعية في أرقى تقاليد المشروع الثقافي النهضوي العربي، الذي ينكفئ اليوم، في تبجيل تأخره، بوصفه مميزاً لذاتيته الحضارية والثقافية: ذاتية العطالة التي تمنح الموتى وحدهم حقّ الكلام. إنّ كتاب **بؤس الثقافة**، بمقدار ما هو شهادة على بؤس الفكر العربي اليوم، هو استئناف لقيم العقل والتنوير والتقدم والتحرر الوطني، التي صاغت ملامحَ ثقافتنا الوطنية عبر أكثر من قرن: حيث الفكرُ النهضويُّ يشكل عمقها التاريخي، والنزوعُ القومي الديموقراطيُّ هويتَها، والماركسيةُ أفقها ومستقبلها. وبذلك فإنّ خطاب فيصل دراج ينطوي على وعي نظري خلاّق بتلازم هذه المكوّنات لثقافتنا الوطنية. فيحق لهذا الخطاب أن ينتظم في سلسلة أرقى الرموز التي أنتجتْ هذه الثقافة منذ طه حسين وأحمد أمين، مروراً بسليم خياطة ورئيف خوري، وصولاً إلى غسان كنفاني وياسين الحافظ وإلياس مرقص وادوارد سعيد وصادق جلال العظم وسعد الله ونوس، تلك الكوكبة التي طالما تحضر في كتابات فيصل، بوصفهم رفاقَ طريق.

إنّ النزعة الأخلاقية، التي تتبدى عن ضرب من الكمالية التمامية لما ينبغي أن يكون عليه المثقف، والتي تُلحق بالبعض شررَ غضبها المقدّس، تدعونا للاختلاف والحوار. لكنّ القيم النظرية والثقافية والأخلاقية والمعرفية، التي تنطوي عليها كتابةُ فيصل، توحِّدنا في مشروع ثقافي وطني تحرري ديموقراطي يساري جديد وبديل.

دمشق